

واصف أبو الشباب : صورة الفلسطيني في القصة الفلسطينية المعاصرة .
دار الطليعة، بيروت ، ١٩٧٧ ، ٢٩٠ صفحة .

يقسم الكاتب دراسته هذه، التي كانت في الأصل أطروحة دكتوراه قدمت لجامعة القاهرة تحت اشراف الدكتور عبد المحسن طه بدر ، الى تمهيد وابابين . ففي التمهيد يقدم تعريفا عاما للمدرسة الرومانسية وللمدرسة الواقعية في القصة، وذلك باعتباره الأدب الفلسطيني منحصرا في اطارهما ، كما يقدم عرضا سريعا لرواية الفلسطيني في انتاج الكتاب الفلسطيني قبل ١٩٤٨ . أما البابان الآخرين اللذان يشكلان محور الدراسة، فيتناولان الأعمال التي تدخل ضمن هذا التعريف ويحملان العنوان : النمط الرومانسي والنمط الواقعى . وفي نهاية دراسته يضيف الكاتب فصلا قصيرا عن الأعمال التي ظهرت بعد ١٩٧٣ ، ثم يرفق بكتابه قائمة بالمراجع التي اعتمد عليها وفهرسا عاما للقصة والرواية الفلسطينية .

في معرض كلامه عن القصة والرواية الفلسطينية قبل ١٩٤٨ ، يتوقف الكاتب عند مذكرات دجاجة لاسحق موسى الحسيني وفي السرير لمحمد العدناني . ففي الأولى يرى تجسيدا لشخصية المثقف الفلسطيني التي "تميل الى الاسلام والتتصوف والخنوع مع ان الواقع الذي مرّ به الشعب الفلسطيني كان يستدعي المواجهة والدفاع عن النفس" (ص ٢٩) ، أما الثانية فيراها مفتقرة "الى التطور والنمو والдинاميكية ، يغلب عليها طابع الهيكل الجاهز ، المغلف بطبقة ضبابية كثيفة" (ص ٤٢) .

و عند انتقاله الى باب النمط الرومانسي ، يقسمه الكاتب الى فصلين : فصل الصورة الدعائية وفصل الصورة الرومانسية . في الفصل الأول يقدم أربعة نماذج للشخصية الفلسطينية : اثننتين سلبيتين واثنتين ايجابيتين وكلها غير واقعية . يتفرد في رسم الشخصية السلبية كل من محمود عباسى في كتابه الهربيع الأخير

ورشاد أبو شاور في روايته الـ "بـكـاـء" على صدر الحبيب، فاما عباسي فلا أنه يعني، حسب ادعائه، يربط "صورة الفلسطيني بصورة الاسرائيلي ثم الاشارة، ولو بطرف خفي، الى تفوق الاسرائيلي على الفلسطيني" (ص ٤٥)، وأما أبو شاور فلا أنه يتخد موقفا سلبيا مشكلا من حركة المقاومة . وبال مقابل يقدم الكاتب عملين آخرين وهما عروس خلف الـ "بـهـر لـسـلـوـي الـبـنـاـ" ، وسنوات العـدـاب لـهـارـون هـاشـمـ رـشـيدـ، وفي كلـيـهـما يـظـهـرـ الفـلـسـطـيـنـيـ بـمـلـامـحـ اـسـطـوـرـيـةـ بـعـيـدةـ عنـ الـوـاقـعـ .

ويـنهـجـ الكـاتـبـ نفسـ النـهجـ فيـ الفـصلـ الثـانـيـ خـلـالـ عـرـضـهـ للـصـورـةـ الـروـمـانـسـيـةـ لـشـخـصـيـةـ الـفـلـسـطـيـنـيـ .ـ فـيـنـتـقـلـ منـ قـصـصـ سـمـيرـةـ عـزـامـ إـلـىـ قـصـصـ غـسـانـ كـنـفـانـيـ الـأـولـيـ،ـ وـالـىـ قـصـصـ زـكـيـ درـوـيشـ،ـ وـمـحمدـ نـفـاعـ،ـ وـمـحمدـ عـلـيـ طـهـ،ـ وـحـناـ اـبـراهـيمـ،ـ وجـبراـ اـبـراهـيمـ جـبراـ،ـ مـعـتـبـراـ ايـاهـاـ اـعـمـالـاـ "ـتـحـمـلـ فـيـ طـيـاتـهـ الـكـثـيرـ مـنـ صـفـاتـ الـكـاتـبـ الـرـوـمـانـسـيـ وـمـمـيـزـاتـهـ،ـ وـلـكـنـهاـ فـيـ نـفـسـ الـوقـتـ تـحـفـظـ بـشـيـءـ مـنـ الـاستـقلـالـ الـذـاتـيـ الـذـيـ يـبـنـيـ مـنـ وـاقـعـهـاـ وـتـطـوـرـهـاـ وـنـمـوـهـاـ"ـ (ـصـ ٧٤ـ)ـ .ـ فـعـ اـنـ هـذـهـ الـأـعـمـالـ لـاـ تـتـسـمـ بالـدـعـائـيـةـ،ـ حـسـبـ اـسـتـنـتـاجـهـ،ـ الاـنـ الشـخـصـيـةـ الـفـلـسـطـيـنـيـةـ فـيـهـاـ "ـفـقـدـ طـابـهـاـ الـخـاصـ"ـ وـاـخـذـتـ طـابـ شـخـصـيـةـ الـكـاتـبـ،ـ وـأـصـبـحـتـ تـنـطقـ بـلـسـانـهـ وـتـعـبـرـ عـنـ عـوـاطـفـهـ وـتـجـمـعـ معـ خـيـالـهـ"ـ (ـصـ ١٤٥ـ)ـ .ـ وـالـغـرـبـ اـنـ الـكـاتـبـ يـدـرـجـ فـيـ هـذـاـ الـبابـ حـلـيمـ بـرـكـاتـ فـيـ رـوـاـيـتـيـهـ سـتـ اـيـامـ وـعـودـةـ الطـاـئـرـ إـلـىـ الـبـحـرـ،ـ مـعـتـبـراـ ايـاهـ كـاتـبـاـ فـلـسـطـيـنـيـاـ "ـعـاـشـ مـعـظـمـ حـيـاتـهـ بـعـدـ الـلـجوـءـ فـيـ لـبـنـانـ"ـ (ـصـ ١١١ـ)ـ .ـ وـمـنـ الـمـعـرـفـ اـنـ حـلـيمـ بـرـكـاتـ لـبـنـانـيـ وـلـدـ فـيـ الـكـفـرـوـنـ بـسـوـرـيـاـ سـنـةـ ١٩٣٣ـ،ـ وـلـاـ نـدـريـ كـيـفـ وـقـعـ الـكـاتـبـ فـيـ هـذـاـ الـخـطاـ وـكـيـفـ لـمـ يـنـتـبـهـ إـلـيـهـ اـسـاتـذـهـ فـيـ جـامـعـةـ الـقـاهـرـةـ !ـ

وبـعـدـ هـذـاـ عـرـفـ لـلـنـمـطـ الـرـوـمـانـسـيـ،ـ يـتـحـولـ الـكـاتـبـ إـلـىـ بـابـ النـمـطـ الـوـاقـعـيـ .ـ وـهـنـاـ أـيـضاـ يـقـسـ الـبـحـثـ إـلـىـ فـصـلـيـنـ :ـ فـصـلـ الصـورـةـ الـوـاقـعـيـةـ الـدـعـائـيـةـ وـفـصـلـ الصـورـةـ الـوـاقـعـيـةـ .ـ فـيـعـودـ إـلـىـ أـبـوـ شـاورـ فـيـ كـتـابـيـهـ :ـ ذـكـرـيـ الـأـيـامـ الـمـاضـيـةـ وـأـيـامـ الـحـبـ وـالـمـوتـ،ـ كـمـثـلـ لـلـوـاقـعـيـةـ الـدـعـائـيـةـ (ـوـالـآنـ فـيـ صـالـحـ الـمـقاـوـمـةـ !ـ)ـ،ـ وـيـضـمـ إـلـيـهـ،ـ كـيـ لـاـ يـبـقـيـ وـحـيدـاـ فـيـ الـمـيـدانـ،ـ اـمـتـالـ جـوـيدـيـ صـاحـبـةـ شـجـرـةـ الصـبـيرـ،ـ ثـمـ يـتـفـرـغـ إـلـىـ الـفـصـلـ الـأـخـيـرـ مـنـ كـتـابـهـ (ـصـ ١٧٧ـ -ـ ٢٦٠ـ)ـ،ـ وـهـوـ الصـورـةـ الـوـاقـعـيـةـ،ـ فـيـرـسـهـ لـكـاتـبـيـنـ فـقـطـ وـهـماـ :ـ اـمـيلـ حـبـيـبـيـ وـغـسـانـ كـنـفـانـيـ .ـ

لاـ شـكـ أـنـ الـكـاتـبـ بـذـلـ جـهـداـ لـاـ يـسـتـهـانـ بـهـ فـيـ تـحلـيلـ الـأـعـمـالـ الـتـيـ تـعـرـضـ إـلـيـهـ،ـ وـخـاصـةـ فـيـ الـبـابـ الـثـانـيـ مـنـ كـتـابـهـ،ـ وـلـكـنـ مـنـهـجـ النـقـدـ الـذـيـ اـتـيـعـهـ اـوـقـعـهـ

في تناقضات خطيرة، فتقسيم الأدب إلى نمطين والتركيز على الشخصية في كل من هذين النمطين مع التفريق بين الصورة الدعائية وغير الدعائية، أفقد الدراسة معالمها المميزة، فليست هي دراسة في الأسلوب كما يوحى هذا التقسيم، ولن يست هي دراسة في الشخصية على أبعادها المختلفة سواء في الأسلوب الرومانسي أو الأسلوب الواقعي . فالكاتب ينتقل من عمل إلى آخر وكل همه استخلاص النتائج التي تتطابق التعريف الذي وضعه للشخصية في الفصل الموسوم به . وفي الواقع، يتراجع هذا التقسيم الأسلوبي ويتنقلس تجاه الموقف المسبق الذي اتخذه الكاتب من الأعمال المدروسة، هذا بالإضافة إلى أنه لم يحدد معالم الأسلوب الرومانسي أو الأسلوب الواقعي في هذه الأعمال، ويكتفي باصدار الأحكام حول صورة الفلسطيني هل هي حقيقة أم لا .

يقول الكاتب في مقدمة كتابه : "يلمس دارس الأدب الفلسطيني الحديث والعاصير ظاهرة تبعث على الدهشة هي ندرة الأبحاث والدراسات التي كتبت عن القصة والرواية" ، – وهذا صحيح إلى حد ما . الا أن كتابه، رغم طموحه إلى الشمول والعمق، لا يكاد يضيف شيئاً جديداً على ما نشر من دراسات متفرقة في المجالات العربية منذ ١٩٦٧ حتى الآن .

وقد الحق الكاتب بكتابه، كما أشرنا ، فهرباً عاماً للقصة والرواية الفلسطينية، اعتمد في إنشائه على فهارس دور الكتب والجامعات في القاهرة وبيروت ودمشق وعمان، وكذلك على فهرس المطبوعات العربية في إسرائيل الذي أصدره البروفسور شموئيل موريه . وهنا أيضاً يقع الكاتب في أخطاء نابعة من عدم الدقة والتتحميس . فهو مثلاً يدرج بين الكتاب الفلسطينيين ابراهيم موسى ابراهيم، وسمير نقاش، وعزرا منشي عابد، وتلائتهم من اليهود النازحين من العراق، كما أنه يدرج في فهرسه حيدر حيدر، وشوقي بغدادي، وفاضل السباعي، وتلائتهم سوريون، هذا بالإضافة إلى حليم برؤس اللبناني !

وخلاله القول، كتاب يفتقر إلى منهج علمي واضح، وهو أيضاً صادر عن رؤية سياسية ضيقة في نقد الأدب .

شمعون بلاص